الوساطة بين المتنبي وخصومه

للقاضي على بن عبد العزيز الجرجاني

تعريف :

هو أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني ، المشهور بالقاضي ، ولد في جرجان سنة ٢٩٠ هجرية ونشأ بها ، ثم جاب البلاد بحثاً عن منابع العلوم والآداب ، حتى اشتهر بعلم الفقه فترجم له الشيرازى في طبقات الفقهاء ، واشتهر بتفسير القرآن فذكره السيوطي في طبقات المفسرين واشتغل في التاريخ فترك فيه آثاراً ، ثم هو شاعر مفلق ، وكاتب مترسل ، وناقد بصير وقد عرف أهل عصره قدره فأخذوا عنه وامتدحوه بأكثر من قصيدة ، نذكر منها قول الصاحب بن عباد :

إذا نحنُ سلَّمْنَا لكَ العلمَ كلَّهُ فَدَعْنَا وهذى الكُتبِ نُحْسِنْ صُدُورَهَا

فإنهُمُ لا يَرْتَضُـــــونَ مَجِينَنَا بِجَزْعٍ إذا نَظَّمْتَ أنْتَ شُذُورَهَــا

توفي الجرجاني سنة ٣٦٦ هجرية . وقد ترك خلفه حصيلة كبيرة من المصنفات ؛ منها : كتاب "تهذيب التاريخ" ، و"تفسير القرآن الكريم" ، و"ديوان شعر" ، و"كتاب الوساطة" .

ماهية الوساطة :

غلب على القرن الهجري الرابع طابع المناقشات النقدية والخصومات الأدبية وقد انصب اهتمام نقاد ذلك العصر على شعر البحتري وأبى تمام والمتنبي . وقد صور لنا كتاب الموازنة طبيعة الخلافات القائمة حول الطائيين ، وكيف انقسم نقاد ذلك العصر إلى فريقين ، فريق ناصر البحتري ودافع عن شعره وبحث عن عيوب أبى تمام لكي يقدم عليه البحتري ، وفريق آخر تحيز لأبى تمام ودافع عن شعره وراح يتصيد عيوب البحتري ليقدم أبا تمام عليه . الأمر الذي دفع الآمدي إلى تأليف كتابه " الموازنة " لكي يوضح الأمور وينصف الشاعرين .

أما المتنبي فقد اشتدت خصومة النقاد حول شعره ، وراحوا يؤلفون الكتب والرسائل في دراسة بعض جوانب شعره ، وقد غلب على بعض تلك الدراسات رؤية خاصة لماهية النقد ، إذ نلاحظ أنهم يعتبرون النقد هو البحث عن العيوب وتصيدها فقط ، ويكفي النظر إلى عنوانات تلك الكتب والرسائل لكي نؤيد هذا الرأي ، فمثلاً لدينا :

١. كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي للعميدي .
٢. الرسالة الحاتمية في مآخذ المتنبي المعيبة .
٣. رسالة في "الكشف عن مساوئ المتنبي" للصاحب بن عباد .

٤. رسالة بعنوان "المنصف في الدلالة على سرقات المتنبي" لابن وكيع التنيسي .

هكذا نلاحظ أن أصحاب هذه المصنفات راحوا يبحثون عن أخطاء وسرقات وعيوب في شعر المتنبي ، الأمر الذي يخيل للقارئ - قليل الخبرة والمعرفة - أن شعر المتنبي بعضه مسروق والبعض الآخر كله عيوب .

لكل هذا كان كتاب الوساطة مهما في موضوعه ، إذ أنه ينصف شاعراً من أكبر شعراء القرن الهجري الرابع ، ينصفه بالدراسة الموضوعية لشعره دون تحيز أو جور مستعينا على ذلك بثقافة الناقد البصير - الجرجاني - ولكي يحقق هذه الغاية أتى مصنفه على النحو التالي :

قدم لكتابه ببعض المباحث النقدية الخاصة بالشعر كالحديث عن أغاليط الشعراء واحتجاج النحاة والخصومة بين القدماء والمحدثين ، ودعا إلى بعض ضروب التجديد في شعر المحدثين ، ثم تحدث عن اتجاهات شعر الطائيين وسرقاتهما والأخطاء التي في شعرهما ، ثم تحدث عن الذي يؤخذ على الشاعر والذي لا يؤخذ عليه .

ثم تحدث عن بعض ألوان البديع مع التمثيل لكل لون ووضع القواعد العامة لكل لون حسن ثم انتقل إلى صلب كتابه وحقيقة قصده ، فبدأ وساطته بالحديث عن شعر القدماء وشعر المحدثين وكى يتتبع سرقات المتنبي تحدث عن الكتب التي سبق تأليفها في السرقات ، ثم وضع مفهوماً للسرقة ، وتحدث عمّا تقع فيه السرقة ، وما الذي يُعد من السرقات الشعرية ، ثم تحدث عن مميزات شعر المتنبي ، وما يؤخذ عليه ... وهكذا إلى أن انتهي من كتابه وأيقن أنه حقق غايته .

القضايا النقدية التي عالجها الجرجاني في وساطته :

فلسفته النقدية في توسطه :

قسم الجرجاني نقاد عصره في نظرتهم للمتنبي إلى قسمين : قسم يناصر الشاعر فيعجب بكل ما يقوله ويبحث عن حسناته ويطيل الوقوف عليها والإشادة بها ، ويتصدى لمعيبيه فيتهمهم بالتقصير والخطأ دون برهان أو دليل ، وإذا ألم بالأخطاء تجاوزها واعتذر عنها وحاول سترها . وقسم يبحث عن الأخطاء ويتصيدها ، ويطيل الوقوف عليها ، وإذا ألمّ بحسنة حاول سترها وتغاضى عنها . أي حال الفريقين يمكن تخليصه بما يفهم من مثلنا الشعبي القائل : "حبيبك يبلع لك الزلط ، وعدوك يتمنى لك الغلط " . وإذا اعتبر الجرجاني "كلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه" ! إذن فما هي النظرية النقدية التي يطالب بها الجرجاني ؟

طالب الجرجاني بالاعتدال والموضوعية وإيراد الحجة المنطقية حيث أن " للفضل آثار ظاهرة ، وللتقدم شواهد صادقة ، فمتى وجدت تلك الآثار ، وشوهدت هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم ، فإن عثرت له من بعد على زلة ، ووجدت له بعقب الإحسان هفوة انتحل له عذرا صادقا ، أو رخصة سائغة ، فإن أعوز قيل : زلة عالم ، وقلّ من خلا منها وأي الرجال المهذب ! ولولا هذه الحكومة لبطل التفضيل ، ولزال الجرح ولم يكن لقولنا فاضل معنى يوجد أبداً ، ولم نسم به إذا أردنا حقيقة أحد، وأي عالم سمعت به ولم يزلّ ويغلط ! أو شاعر انتهي إليك ذكره لم يهف ولم يسقط ! " هذه هي نظرية الجرجاني التي يحاول بها ردع الباحثين عن الأخطاء فقط ؛ وليس ذلك فحسب بل يثبت بها الجرجاني ــ بدراسة استقرائية ــ أنه لم ينج من الخطأ حتى فحول الشعراء الجاهليين فمثلاً أخطأ امرؤ القيس حينما نصب "بلغ" في قوله :

أيا راكباً بلغَ إخواننا من كان من كندة أوائل

وسكّن "أشرب" في قوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما مــن الله ولا واغــل

وهكذا عدّد الجرجاني الكثير من أخطاء فحول شعراء الجاهلية والإسلام . ليثبت بعد ذلك ميزانه الذي يأخذ به ، فالشاعر ــ عنده ــ بشر يجيد ويخطئ ، وإنّ كثرة الحسنات تذهب بالسيئات ، وتكون منزلة الشاعر مقرونة بكثرة حسناته وتغطيتها على سيئاته . وهكذا يكون المتنبي ليس أولا في الأخطاء ، فالعيوب والأخطاء موجودة قبله ، ولكن حسناته هي التي رفعته حتى أصبح شاعر عصره .

القدماء والمحدثون :

رأى الجرجاني بعض علماء عصره يفضلون شعر القدماء على شعر المحدثين ، مع أنهم يعلمون "أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه" .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الجرجاني يقرر أن تمييز شاعر عن آخر يكون حسب مقياسه التالي: "فمن اجتمعت له هذه الخصال - أي التي ذكرها آنفا - فهو الحسن المبرز ولا تفضيل في هذه القضية بين القديم والمحدث إلاّ أن حاجة المحدث إلى الرواية أمّس . " أما القول بأن شعر المحدثين أبعد عن الغربة والبداوة وأسهل من شعر القدماء ، فإن تعليله عند الجرجاني :" إن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، وأنت تجد ذلك ظاهراً من أهل عصرك وترى الجلف منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام وعر الخطاب ومن شأن البداوة أن تحدث ذلك ، ولذلك تجد شعر عدى بن زيد أسلس من شعر الفرزدق لملازمة عدي الحاضرة واستيطانه الريف ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب ، أي أن الشعر ينبع من بيئة الشاعر ويتلاءم معها ، وأن

اختلاف بيئة القدماء عن بيئة المحدثين هو الذي أوجد هذا الاختلاف في الشعر وفي طبائع الشعراء ، والجرجاني لا يطلب من المحدثين أن يقلدوا القدماء وينفصموا عن عصرهم وبيئاتهم وإلا سيكون شعرهم متكلفا ، وللجرجاني في الشعر المتكلف رأى خاص .

الشعر المتكلف :

يرى الجرجاني أن بعض المحدثين قد أولعوا بشعر القدماء فتكلف شعرهم وحاول تقليده الأمر الذي أخرج شعره من دائرة المطبوع ، ومثّل لذلك ببعض شعر أبى تمام ، إذ يرى أنه "حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح في غير موضوع من شعره " ومن الأمثلة العديدة التي ذكرها الجرجاني ، نورد قول أبى تمام :

ولقد أراك فهـل أراك بغبطـــة والعيش غض والزمان غلام
أعوام وصل كان ينسى طولها ذكـر النـوى ، فكأنها أيـــــام
ثم انبرت أيام هجر أردفـــــت بجوى أسى ، وكأنهـــا أعوام
ثم انقضـت تلـــك السنـــــون وأهلها فكأنها وكأنهم أحـــلام

ثم يعقب - الجرجاني - على هذه الأبيات وغيرها مما أورده بقوله : "كيف يتصور فيه ذلك الكلام الغث ! وأعجب من ذلك شاعر يرى هذه الغرر في ديوانه كيف يرضى أن يقرن إليها تلك الغرر ! وما عليه لو حذف نصف شعره ، فقطع ألسن العيب عنه ، ولم يشرع للعدو بابا في ذمه !" .

ثم يثبت الجرجاني رأيه هذا بأن يورد قصائد من شعر أبى تمام ويبين ما فيه من شعر مطبوع حسن ثم كيف أفسده أبو تمام بأن أضاف إليه شعر متكلف رديء .

الشعر المطبوع :

إن استخدام الجرجاني لكلمة الطبع يقابل استخدامنا في هذا العصر لكلمة الموهبة ، فالشاعر المطبوع هو الشاعر الذي يصدر عن موهبة صادقة ، أما مقياس الشعر المطبوع عند الجرجاني ، فهو ما ماثل شعر البحتري ، الذي يورد منه أمثلة على كل غرض ، فمن شعر البحتري المطبوع يورد قوله في النسيب :

ألام على هواك وليس عـــدلا إذا أحببت مثلك أن ألامـا
أعيدي في نظرة مستثيـــب توخى الأجر أو كره الأثامـــــا

ترى كبدا محرقة وعينـــا مؤرقة وقلبـــــا مستهامـــا
تناءت دار علوة بعد قـــــرب فهل ركب يبلغها السلامـــا
وجدد طيفها عتبا علينـــــــــا فما يعتادنا إلا لمـــاما
وربت ليلة قد بت أُسقى بعينيها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقـــا وأفنيناه ضما والتزامـــا

وبعد أن يورد العديد من الأمثلة يعقّب الجرجاني بقوله : "هل تجد معنى مبتذلا ولفظاً مشهراً مستعملاً! وهل ترى صنعة وإبداعاً أو تدقيقاً أو إغراباً ! ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك من الطرب إذا سمعته ، وتذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثلة لضميرك ، ومصورة تلقاء ناظرك . فإن قلت هذا نسيب والنفس تهش له ، والقلب يعلق به ، والهوى يسرع إليه ، فأنشد له في المديح قوله :

بلونا ضرائب من قد نرى فما إن وجدنا لفتح ضريباً

ثم بعد ذلك يستشهد بالعذب من شعر جرير ويبرر استشهاده بشعر البحتري لأنه أقرب عهداً من جرير ...

رأى الجرجاني في البديع :

يرى الجرجاني أن العرب لم تكن تعمد إلى البديع عمداً في قصائدها ، وأن النقاد لم يفضلوا بين شاعر وآخر بما أورده في شعره من فنون البديع بل فاضلوا بين الشعراء "في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبّه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس ، والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع في الاستعارة ، إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض..." .

ثم بعد ذلك ينتقل الجرجاني للحديث عن ألوان البديع مع التمثيل للحسن منها ، وهو يقصد بهذا التمثيل أن يجعله مثلاً للمحدثين لكي يحتذوه ، ثم ينبههم ويحذرهم من سوء استخدام البديع . ويورد أمثلة على ذلك ، فيتحدث عن الاستعارة ، والتشبيه ، والتجنيس بأنواعه ، والاستهلال ، وحسن التخلص والخاتمة ...

رأى الجرجاني في قضية الدين والشعر :

سبق الجرجاني في هذه القضية كل نقاد العصر الحاضر ، فإن دعواهم التي تتردد في هذه الأيام - في الغرب أو الشرق - هي التي آمن بها الجرجاني حينما قال بضرورة الفصل بين الشعر والدين ، وطالب النقاد بالتزام المحايدة وعدم القدح في الشعر أو الشاعر بسبب

عقيدته الدينية ، وأورد أشعاراً لأبى نواس وغيره من الشعراء ثم عقب عليها بقوله " فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخير الشاعر ، لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عُدّت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكماً خرساً ، وبكاء مفجعين ، ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر .

رأى الجرجاني في السرقات الشعرية :

اطلع الجرجاني على كل ما سبقه من دراسات حول سرقات الشعراء ، ولطيش ما رآه من أحكام ولكثرة المتحاملين على الشعراء - وعلى المتنبي خاصة - الذين يطلقون الأحكام جزافاً ويتهمون بالسرقة دون تمحيص ، قرر في بداية هذا المبحث أن كثيراً من الناس لا يعرف من السرق إلا اسمه مع أن السرقات الشعرية "باب لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله . ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علماً برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرق والغصب ، وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به وبين المختصر الذي حازه المبتدئ فملكه ، وأحياه السباق فاقتطعه ، فصار المعتدى مختلساً سارقاً ، والمشاركة له محتذياً تابعاً ، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه : أخذ ونقل ، والكلمة التي يصح أن يقال فيها : هي لفلان دون فلان" .

في المقتبس النقدي السابق نلاحظ أن الجرجاني يحذر من إطلاق تهمة السرقة جزافاً ، ثم يقسم السرقة إلى قسمين : سرقة في المعاني وسرقة في الألفاظ .

وفي المعاني تلاحظ أنه يُخرِج من دائرة السرقة المعاني المشتركة والمتداولة كما فعل الآمدي من قبل ، وقد أضاف على الآمدي قوله "وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني - المشتركة المتداولة - بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر ، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن ، أو تأكيد يوضع موضعه ، أو زيادة اهتدى لها دون غيره فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع ، كما قال لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامهـــا

فأدى إليك المعنى الذي تداولته الشعراء ، قال امرؤ القيس :

لم طلل أبصرتـــه فشجانـــي كخط زبور في عسيب يماني

وقال حاتم :

أتعرف أطلالا ونؤيـــا مهدما كخطك في رق كتاباً منمنمـــا

وقال الهذلي :

عرفت الديار كرسم الكتا ب بزبره الكاتب الحميـــــري

وأمثال ذلك مما لا يحصى كثرة ، ولا يخفي شهرة ، وبين بيت لبيد وبينها ما تراه من الفضل ، وله عليها ما تشاهد من الزيادة ... ؟" .

ثم يورد أمثلة على المعاني المبتذلة التي تداولتها العامة ، ثم أخذها بعض الشعراء فأبرزها في معرض حسن لما أضاف "إليها من روحه وإبداعه" .

وقد أحكم الجرجاني هذا المبحث حينما حذر من التفريط والتغاضي عن بعض السرقات الحقة، فكما لا يجوز الإفراط في إطلاق التهم بالسرقة كذلك لا يجوز التغاضي عن السارق ، قال : ولم يبق عليك إلاّ أن تحترس من التفريط ، كما احترست من الإفراط . فلا تكن كمن يرى السرق لا يتم إلاّ باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة ، والمصراع تاماً ، بل لا يعرف السارق إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس ..." ، ثم يورد هذه الأبيات التي سرقها كاملة عبد الله بن الزبير من معن بن أوس ويورد غيرها الكثير من الأمثلة التي ظهرت فيها السرقة ، ثم انتقل للحديث عن سرقة المعاني والأغراض ، وقد اعتبره الجرجاني منذ البداية صعب المنال لا يستطيعه إلا الناقد البصير ، وقد ذكر في هذا المجال العديد من الأمثلة التي منها تناسب قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وقول الأفوه الأودي :

إنَّما نعمـــة قـــوم متعـــــة وحياة المرء ثوب مستعـــار

ويعلق عليها الجرجاني بقوله : "وإن كان هذا ذكر الحياة ، وذلك ذكر المال والولد وكان أحدهما جعل وديعة ، والآخر عارية ، وتعلم أن قول الشاعر وما المرء إلاّ حيث يجعل نفسه .. هو من قول الآخر :

فنفسك أكرمها أن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

ثم يعقّب بقوله : "وحتى تتأمل هذه الأبيات فتعرف انتساب بعضها إلى بعض ، واتصال كل واحد منها بصاحبه ، مع افتنان مذاهبها ، واختلاف مواقعها ..." .

ثم تحدث بعد ذلك عن السرقة وذلك بقلب معنى المسروق فإذا كان هجاء قلبه إلى غزل ثم غيّر في وزنه وقافيته وهكذا ... ثم ينتقل بعد ذلك إلى باب آخر أسماه "ادعاء السرقة في شعر البحتري وأبى نواس وأبى تمام" ، وخلّص أشعارهما من بعض التهم الزائفة ، ثم وقف على بعض سرقاتهما الحقيقية ، وكان هذا الباب و ما سبقه بمثابة تمهيد لدراسته لسرقات المتنبي ، حيث كان قد أقر القواعد والأصول التي سيسير عليها في دراسته لشعر المتنبي ، هذا ما نلاحظه في حديثه عن سرقات المتنبي، إذ نلاحظ خلو حديثه من التعليق معتمداً على ما سبق تقريره ، كأن يقول : قال أبو تمام :

لو حار مرتاد المنية لم يجد إلا الفراق على النفوس دليلاً

قال أبو الطيب :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلاً

وقد نظفر أحياناً بالقليل من الشرح والتعقيب ... وهو في حديثه عن سرقات المتنبي بأنواعها - سرقة في المعنى أو في اللفظ أو في الاثنين ، وما يستقبح وما يستجاد - يستغرق معظم كتابه .

مكانة الناقد عند الجرجاني :

لقد تناول الجرجاني العديد من المسائل النقدية التي آثرنا ألا نوردها لأننا لم نجد فيها جديدا يضاف إلى ما ذكره صاحب الموازنة ، فاكتفينا بما ذكره صاحب الموازنة ، من ذلك مثلاً حديث الجرجاني عن عيوب شعر المتنبي وبعض الأخطاء التي وقع فيها المتنبي إلى غير ذلك من الموضوعات التي أقر أصولها الآمدي ، لذلك نختم حديثاً عن القضايا النقدية التي عالجها الجرجاني في وساطته ، بنظرة الجرجاني الصائبة لصعوبة العملية النقدية ، وعلو مكانة الناقد الذي تزود بثقافة الناقد ، إذ يرى الجرجاني أن الناقد وحده هو الذي يستطيع أن يميز مواقع الكلام ، وفي هذا المجال نذكر قوله : "وهذا أمر تنسجم به النفوس المهذبة ، وتستشهد عليه الأذهان المثقفة ، وإنما الكلام أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار ، وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن، وتستوفي أوصاف الكمال ، وتذهب في الأنفس كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ثم تجد أخرى دونها في انتظار المحاسن والتئام الخلقة ، وتناصف الأجزاء ، وتقابل الأقسام ، وهي أحظى بالحلاوة ، وأدنى إلى القبول ، وأعلق بالنفس وأسرع ممازجة للقلب ، ثم لا تعلم ــ وإن قاسيت واعتبرت ونظرت وفكرت

ــ لهذه المزية سبباً ، ولما خصت به مقتضيا ..." ، ثم يكمل الجرجاني حديثه عن صعوبة عمل الناقد ، وتفاوت النقاد في الثقافة والمقدرة الأمر الذي ينتج التفاوت في أحكامهم..." .

الوساطة في الميزان :

إذا كنا فيما سبق لم نذكر كل ما جاء به الجرجاني في وساطته فإننا في هذا المجال نجمل تعقيبنا على الكتاب في السطور التالية :

إن مقدمة كتاب الوساطة هي أهم ما في الكتاب ، وفيها يوضح الجرجاني موقفه من الأدب ونقده ، وفيها يرسى قواعده وأصوله النقدية التي سيلزم نفسه بها في دراسته لشعر المتنبي . أما دفاع الجرجاني عن المتنبي فهو يستغرق معظم الكتاب وبالرغم من ذلك فهو أقل أهمية لخلوه من النقد الحقيقي ، إذ لا نجد فيه إلا دفاع اليائس عن المتنبي ، ذلك الدفاع الذي لا يناقش فيه حجج الخصوم ، بل إن دفاعه سلبي كأن يقول في تبرير أخطاء المتنبي ، إن قدماء الشعراء وفحولهم وقعوا فيما وقع فيه المتنبي من أخطاء . ومن حسنات هذا القسم من الكتاب دراسته المتكاملة لمبحث السرقات الشعرية.

أما باقي الكتاب فهو بمثابة النقد التطبيقي ، الذي يعتمد فيه الجرجاني على ما سبق أن أقره من أصول نقدية ، فيدرس في هذا القسم بعض ما أُخذ على المتنبي من عيوب .

وفي الختام نستطيع أن نقول إن كتاب الوساطة هو توأم كتاب الموازنة الذي يكمله والذي يتفق معه في المنهج والتخطيط إلى أبعد الحدود وأن الكتابين يعتبران أهم ثمرة نقدية من ثمرات ذلك العصر.